**القيم في مرحلة ما بعد الحداثة .. قيم العمل اليابانية إنموذجا**

**مسفر بن علي القحطاني**

**الاستاذ المشارك بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن بالظهران**

**المملكة العربية السعودية**

**مقدمة**

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه أجمعين وبعد:

هذه الندوة المباركة جاءت في وقت شديد الأهمية ،نتيجة لتصارع القيم التي توارثتها الأمم والمجتمعات لقرون طويلة من أديانها وثقافاتها ، امام طبائع العولمة ومعطياتها الجاذبة التي صبغت كل الحياة بمنتجاتها السريعة العابرة للحدود واللافتة للمتعة والنفع المادي ، ومع تساير أحيان وتجاذب في بنيات الطريق ، يقع هناك بعض الصدام بين القيم والعولمة بحداثتها المتقلبة حسب مزاج اللذة التي يريدها العالم أو من يقود العالم من الشركات وغيرها .

هذه الحالة هي محل مناقشة و تبادل للرأي لأن فيها منافع لا تنكر مع وجود مضار لا تغفل ، لهذا أحببت أن أجعل هذه الورقة في مقدمة وثلاث مسائل كالتالي :

الأولى : مشهد القيم في ظل عولمة السلع .

الثانية : القيم في مرحلة ما بعد الحداثة .

الثالث: الحداثة اليابانية و رسوخ قيم العمل .

واخيرا ..أشكر مركز الأمير عبدالمحسن بن جلوي للبحوث والدراسات الإسلامية على عقد هذه الندوة بالشراكة مع معهد سيسمور المتميز باليابان ، مما سيضيف الكثير من التطبيق العملي على نجاح الحداثة ونجاح القيم وليس فشل المجتمع باجتماعهما مع بعض .

**المسألة الأولى : مشهد القيم في ظل عولمة السلع**

" القيم إلى أين؟ " هذا التساؤل الكبير كان محطّ اهتمام أكثر من خمسين مفكراً جمعتهم اليونسكو من كل أنحاء العالم للتباحث حول مستقبل القيم في ظل التطورات الهائلة التي أصابت عدة قطاعات حيوية جاءت بها ثورة التقنية والأسواق المفتوحة وعممتها وسائل الإعلام والاتصال, وكان هناك شبه إجماع -حسب قراءتي لمقالاتهم ومناقشاتهم لهذه القضايا- وهو أن التهديدات هي أعظم من المبشرات ودواعي التشاؤم التي تحكم معطياتها إشراقات التفاؤل.
لقد رصدت هذه المجموعة من الباحثين والفلاسفة خطورة المستقبل القادم للقيم الإنسانية، لا بدعوى التنبؤ بإرهاصاته، ولكن من أجل الحماية من تداعياته الكارثية، وبالخصوص على مستوى القيم الفكرية والثقافية والأخلاقية وحتى الدينية، فقد بدأت تخضع هذه القيم لمنطق العرض والطلب، وحاجات السوق الكبير الذي ساحت به العولمة في كل أودية العالم، وأصبحت المساومات المادية هي لغة التفاهم بين الدهاقنة أصحاب التمويل وعابري البحار من الشركات المتعددة الجنسية، وبين أفراد ومؤسسات الثقافة ومصانع الفكر, وهنا مكمن الخلل الذي يتعدّى سوء الاستغلال للتراث الإنساني والقيم النبيلة التي حفرتها مَسلّة المجتمعات البشرية, وهذا ينذر بكساد قيمي قد يحطّم المجتمع، ويلاشيه، ويصبح الناس كالمسامير المتحركة في تلك المجتمعات الميكانيكية، أو سلعاً رخيصة لاستهلاك الأقوياء وإلهاء الضعفاء.
هذه المقدمة السابقة هي رؤيتي الواضحة لمستقبل القيم في كثير من أنحاء العالم، بعيدة عن أي نظارة تختزل الواقع في وردة صغيرة. صحيح أن المجتمعات ليست قالباً واحداً في حجم التأثر بل هناك تفاوت في القوة والضعف بينها قد يكون مرده إلى العامل الزمني الذي تحدده العولمة في خطتها للانتشار, وفي منطقتنا العربية القطار قد وصل المحطة، والركاب ينتظرون الدخول فيه لحجز مقاعدهم في رحلتهم نحو المجهول!
أعلم أن هذا التشاؤم لا يليق بالمسلم الذي يصنع الخير من معامل الشر، ويحطم قيود اليأس بالعمل المثمر، ويغرس النخلة، ولو قامت الساعة, لكن الفأل المفرط لا يمنع دقّ نواقيس الخطر القادم من تحولنا إلى سوق كبير يُباع فيه كل شيء, نعم كل شيء حتى الفكر والقيم والإنسان, والمتأمل في اقتصاديات العولمة وأسواقها الحرة رأى كيف تذوب اللغات، وتُهمّش الثقافات، ويُباع الإنسان، أو يُدفن حياً تحت ركام الديون أو البحث عن فتات العيش في مزابل الأغنياء والمترفين. لذلك خرجت صيحات فلاسفة الغرب (هابرماس) و(بيار) و(ريفكي) و(تشومسكي) و(كنيدي) (إدغار موران) وغيرهم بالدفاع عن القيم، ولو كانت ناقصة التأثير؛ فالحداثة الغربية بمفاهيميها العلمانية قد ماتت في نفوس الكثيرين، وسقطت في براثن فيروسات الغطرسة والتعالي وازدواجية المبادئ, وورثتها الحاليين ناقمين عابثين محطمين بناء الأسلاف مهما كان جماله في أعينهم.
أنني أشاهد في مجتمعي تلك الصورة المتكررة للاستبداد والاستغلال, وتلك البدايات التي انتهت منها شعوب، وذاقت مرارتها ثقافات، تريد بسط نفوذها تحت هيمنة الإعلام المؤدلج, ووطئت المنتديات الاقتصادية التي يُجلب لها متحدثون من العالم يعيدون تنميط الثقافة وإنتاج القيم للناس، كما يريدون، لا كما نؤمن ونعتقد, لقد اضطّروا المثقفَ والكاتبَ والعالمَ لأن يتوقف عن الإبداع والبحث والتأليف حتى يرتفع الطلب، أو يبيع ما عنده وفق احتياج السوق وأهواء الناس, وعليه دائماً -إذا لم يكن له صديق أو معرّف في هذا السوق- أن يعدّ الجواب لأسئلة الناشرين: كم سيجلب من مال أو يشتري بضاعته الفكرية من أناس، ولو بالإثارة التافهة أو الدّوْس على القيم السامية؟! هذه الحالة المؤسفة خيوط بداياتها تتفاقم في مجتمعنا وملامحها بدأت تظهر في معارضنا للكتاب، وبرامجنا الإعلامية في تحقير العظيم، وتعظيم الحقير، وتحطيم الوعاة، وقراءة سورة يس على مشهدنا الفكريّ الأصيل؟!!

**المسألة الثانية : القيم في مرحلة ما بعد الحداثة .**

كانت ثورة التنوير والعقلانية ضد الكنيسة والدين لم تتجاوز أوروبا إلاّ بعد أكثر من قرن من زمان، وذلك لما بدأ الاستعمار الأوروبي يحمل أسلحته ويفرض أفكاره على شعوب العالم بقوة الغالب وتبعية المغلوب، ولم تتوانَ البعثات الدراسية الأولى إلى الغرب عن القيام بدورها في نشر الفكر العلماني والتبشير بالخلاص الليبرالي لمآسي الضعف والفقر والاستبداد الذي تعيشه أكثر شعوب العالم مع بداية القرن العشرين، ولا يزال الحراك الثقافي والفلسفي حتى اليوم ينمو ويتطور في أوروبا، ولكن بشكل مختلف عما سبق حدوثه في ثورة التنوير والعلم والمادة وتقديس العقل، فقد جاءت تلك الحقبة بعد عصور الظلام الكهنوتي والظلم السياسي والإقطاعي، ولكن معطيات التغيير الحالي لن تتأخر في وصولها إلى العالم -كما مضى- بل أصبحت المعرفة تُدوُّل في لحظات من انطلاقها من مهدها، وعندما تكون الفلسفة الجديدة متناغمة مع توجه الإعلام الهوليودي على وجه الخصوص وسياسات النظام العالمي الجديد -كما هو حال الطور المعرفي الراهن- فإن عمق الأثر سيتجاوز النخب المثقفة إلى أفراد المجتمعات،كلٌ حسب رغبته اللحظية، وليس هناك اعتبارات ستكون أهم من المتعة والرغبة الجسدية، فالصعود المعرفي لسطوة المادة والطبيعة وصل إلى مرحلة النهاية التي يلزم بعدها النكوص من القمة نحو القاع، ولكن ما هو القاع الذي نتوقعه من واقع هذا الحراك الفلسفي في الغرب وإلى أين سينتهي؟ وما هو البديل المعرفي لحضارةٍ مادية سيطرت على شؤون العالم كله؟ كل تلك الأسئلة لا أحد يملك الإجابة عنها، ذلك لسرعة السقوط للقداسة الفلسفية التي تكونت، وأخذت وهجاً عالمياً حلّت به بديلاً عن الديانات العريقة التي آمنت بها شعوب كثيرة في أوروبا و أمريكا وبعض إفريقية وآسيا. إن قعر الهاوية بدا عند بعض الفلاسفة المعاصرين هو المآل الطبيعي للفكر العقلاني الغربي، ليس تبشيراً بأفضلية البديل بقدر ما هو استشراف الأسوأ من حال الفكر المعاصر، من خلال بروز ظاهرة التهميش المتعمدة للفلسفات العريقة، والدخول إلى عالم الميوعة، أو كما سماها "المسيري" الدخول إلى "المادية السائلة" عقب "المادية الصلبة"، إننا أمام معاول قوية تهدم كل ما هو حقيقة، أو أساس مستقر، أو قانون مطلق، أو فكر شامل، هذه الحالة هي ما يُسمّى في الغرب (بما بعد الحداثة)، أو ما بعد البنيوية، أو ما بعد الليبرالية، أو ما بعد العقلانية، إلى غيرها من المابعديات الفوضوية والعبثية واللاشيئية، هذا التنظير الجديد لما بعد الحداثة، بدأ مع نيتشه الذي لخص رؤيته العدمية في عبارته الشهيرة "لقد مات الإله، ويقصد بعبارته تلك كما يقول (هايدجر) الفيلسوف الألماني :"إن الإله بالنسبة لنيتشه هو العالم المتسامي.. العالم الذي تجاوز عالمنا –عالم الحواس-. الإله هو اسم عالم الأفكار والمثاليات والمطلقات والكليات والثوابت والقيم الأخلاقية". إنه التحرر الكامل للإنسان من أي سيطرة لقيم أو ثوابت أو مرجعيات عقلية، بل هي دعوة منه أن نقبل بالعدمية زائراً دائماً بيننا ؛على حد تعبير (نيتشة) نفسه، و(هايدجر) و(سارتر) و(لاكان) وغيرهم من فلاسفة الغرب دعوا إلى هذه الفوضوية و التحويل من الحقائق الكبرى إلى القصص الصغرى التي يكوّنها الإنسان لنفسه، ويؤمن بها بعيداً عن أي معا يير يمكن أن تحد من قبولها، وزاد من سعار النقد للعقلانية وهدمها؛ نشر الفلسفة التفكيكية القاضية على كل المدلولات والحقائق الثبوتية، ولعل (جاك دريدا) و(ميشال فوكو) وغيرهم من مفكري الغرب المعاصر قد ساهموا وبشكل كبير في تنظير التفكيكية كمرحلة بعد البنيوية، تزيح ما علق في فلسفات الحداثة من معاني ودلالات ثابتة، ولعلي ألخص أبرز ملامح ما بعد الحداثة في النقاط الموجزة التالية:

أولاً: من البديهي أن الاعتبارات الدينية والغيبية لا مكان لها في فلسفة ما بعد الحداثة، وذلك أن الحداثة المادية –قبلها- قد همشت دور الدين و ما وراء المادة، وحُسم الأمر من عهد التنوير المبكر، لذلك تتجه فلسفة ما بعد الحداثة إلى القضاء على دور العقل ومركزية الإنسان والطبيعة؛كفلسفة قامت في عهد نهضة الحداثة الغربية، وهي -أي فكرة ما بعد الحداثة - تفترض أن العالم مادة، في حالة حركة دائمة، ولا قصد لها ولا أصل, ومجرد استخدام كلمات مثل: حق ويقين وذات ودوافع مثالية هي سقوط في الميتافيزيقا الماورائية، فليس هناك نظام مركزي بل هي نظم صغيرة مغلقة يدور كل منها حول نفسه، ولها معناها الخاص الذي لا يرتبط بأي مدلولات أخرى.

ثانياً: ليس هناك حقيقة مسلمة في فكر ما بعد الحداثة بل هي حقائق متعددة، يصوغها الإنسان نفسه، ويختار ما يريده من قناعات، حتى لو كانت في منتهى الشذوذ، فهي القبول البرجماتي للوضع القائم مهما كان دون تغييره بل التكييف معه والإذعان له، وكان المدخل لهذه العدمية؛ من خلال الفلسفة التفكيكية للمعاني، فـ(جاك دريدا) يطرح مفهوم (أبوريا aporia)، وهي كلمة يونانية تعني "الهوة التي لا قرار لها"، فمعنى النص مبعثر ومنتشر وذلك أن لِلّغة قوة لا يمكن التحكم فيها، فالمعنى أكبر من مدلول الكلمة، وكل قارئ يفهم معناه الخاص من الكلمة، فتصبح المعاني بعدد القراء، وبالتالي إلى حالة من السيولة تختفي فيها الحقائق، وتتعدد فيها المعاني الفردية، وهذا ما جعل النصوص المقدسة في العهد القديم والجديد فضلاً عن النظريات والقيم والمبادئ كلها صور هلامية يفهمها كل شخص على حسب مراده، وبالتالي سقوطها في فخاخ ما بعد البنيوية.

ثالثاً: النظام الأخلاقي في فلسفة ما بعد الحداثة لا يخضع إلى اعتبارات قيمية مطلقة أو أي معايير ثابتة أخذت اعتبارها من توافقات الشعوب بثقافاتها ودياناتها على احترامها ووثوقية مبادئها؛ بل الأخلاق تنطلق من اتفاقيات محدودة الشرعية تمليها مصالح الفرد أو المؤسسات المهيمنة على المجتمع سواء كانت أمنية أو اقتصادية أو إعلامية، فالصدق والعدل والأمانة قد لا تُحمل على معانيها المعروفة والمتوارثة بين الناس، ولكن قد يُحتاج لها من خلال منظور برجماتي مؤقت ومؤطّر في حدود النفعية البحتة، وهذه الفلسفة لما نزعت اعتبارية العقل ومركزية الفكر الإنساني المادي جعلت اهتمامها في تقديس اللذة والرغبات الجسدية، خصوصاً ما كان منها في جانبه الجنسي، وإطلاق الرغبات المكبوتة دون قيود أو سلطات مانعة، فالسعار الجنسي يعتبر انعتاقاً من طوباويات عبودية غير الذات، ولذلك وجدت الشركات الإعلامية والأزياء وأماكن الترفيه والملهيات بغيتها في هذه الفلسفة، ويُلاحظ هذا الأمر من هبوط قيم الملابس الحديثة وعريها بشكل فاضح وتعميم موضاتها في جميع العالم، كما يُلحظ التجانس القوي وإلغاء الفروقات بين لباس الرجل والمرأة كتسوية بين الأجناس والمخلوقات، وليست مساواة بالمعنى العادل، وبالتالي شيوع العائلات المكونة من زوجين من الرجال، أو زوجين من الإناث، أو زوج وأطفال، أو زوجة وأطفال، وهذا نذير بانهيار حاد لمفهوم الأسرة الطبيعية، نحو تمرد عبثي لا يعرف سوى اللذة الجنسية الغارقة في الشذوذ، وفي هذا يصرح (فوكو) وهو من رواد فلسفة ما بعد الحداثة أنه شاذ جنسيا ويمارس السادية، ويرى أنه إذا سافر لعاصمة الشذوذ الجنسي في العالم (سان فرنسسكو) ومارس الشذوذ السادي أنها لحظة الانعتاق الوحيدة التي يشعر بها لأنه يزيل –كما يقول – آثار الميتافيزيقا نهائياً وظلال الإله.

رابعاً: تؤكد سياسة ما بعد الحداثة، وهنا استخدم لفظة سياسة وليست فلسفة، لدخول هذا المؤشر إلى حيز الشريك الفلسفي والسياسي للنظام العالمي الجديد، والذي وجد في فكرة الهيمنة العسكرية خسائر وإذكاء لجذوة المقاومة في الدول المستعمَرة، فتحوّلت مشروعاته الاستعمارية نحو الاستعمار الناعم بالتركيز على ضرب الخصوصيات القومية وأنظمتها المرعية لضبط مصالح شعوبها؛ من أجل فتح الحدود للشركات العابرة والمنتجات الاستهلاكية، وتحويل النخب السياسية في تلك الدول إلى شركاء في الاستثمار، وتحويل الشعوب إلى أدوات استهلاكية، فالهوية الدينية والثقافية والخصوصيات القومية لا مكان لها في السوق العالمية الحالية، وإغواء المجتمعات يسير بشكل قوي ومنحدر نحو التخدير الإعلامي والإعلاني للوقوع في قبضة سكرة الاستهلاك والمديونيات الطويلة، ولا يقل حجم التأثير الهوليودي قوة عن غيره في تعزيز بقاء الإنسان آلة للعب والإلهاء، والشعور بالتبعية القسرية للنظام العالمي الغربي الشمالي الأبيض، من خلال أفلام البطولات المنقذة للأرض، أو من خطر العصابات الروسية أو الإرهابيين أو الملونين عموماً، أو الوقوع تحت التنويم العقلي لأسْر الثراء والنظام واللذة؛ وذلك بالمحاكاة التامة لتلك المجتمعات الغربية البيضاء من خلال البرامج والأفلام الغربية، وفي الآونة الأخيرة زادت قنوات الأفلام في القنوات العربية، وربما في العالم أيضاً وبشكل كبير وسريع، وأغلبها يصدر من هوليود، ومن خلال تأثير واضح لفلسفة ما بعد الحداثة وفوضويتها العابثة لقيم العالم.هذه بعض ملامح فلسفة ما بعد الحداثة، وكل ما سبق أعتبره مقدمات للوصول إلى نتيجة أرى أنها ضرورية لإدراك حجم التأثير لهذه الفلسفة الغريبة بين أوساطنا الثقافية العربية والإسلامية، والتناغم مع الكثير من الأطروحات الفكرية التي تصب في ذات الأهداف، إما عن دراية وعلم، أو من خلال التبعية الثقافية التي تجبر أصحابها على الترديد الببغائي مهما كان صوته صارخاً ونشازاً، وهذا ما نقرؤه من محاولات تفكيكك النص القرآني وتفسيره، وفق ميول ورغبات القرّاء، أما السنة فقد تم إلغائها بحجة أنها لامركزية لها؛كونها جاءت من بشر لا يختلف عن غيره من الناس، والظروف النبوية اختلفت تماماً عن واقعنا المعاصر الذي يحتاج إلى أدوات جديدة للفهم والاستنباط، وأحياناً يأتي النقد إلى نبذ الهوية القومية، والمطالبات بالإصلاحات السياسية وفق المشاريع الشرق أوسطية المشتركة، كذلك تهميش القيم الخلقية والسلوكية وغيرها من مسلّمات الدين، خصوصاً والمعطيات العقلية الأخرى، وهو طرح كثير من الليبراليين الجدد من العرب المستغربين.بقي أن أركز على دواعي طرق هذا الموضوع وعلاقته ببنية العقل المسلم؛ إذ إن دور العقل بدأ يهتز وينقض من أساسه، وذلك لوجود ثغرات واضحة في العقل المادي ومركزيته في النهضة الغربية الحديثة، بينما دور العقل المسلم لا يزال قاصراً عن إحياء دوره السابق في إعادة تكوين منهجية البناء الحضاري الشامل للجوانب المعنوية والمادية، كما أن منهج الاستدلال الأصولي وقواعده المقاصدية قد أثمرت علوماً رائدة لا مثيل لها في جميع الحضارات. وما أن تم تغييبها عن الواقع الإسلامي وتهميش فاعليتها في التجديد والتغيير والاكتشاف عن معارف حديثة وعلاج للواقعات الجديدة؛ حتى دب الضعف في جسد المجتمعات الإسلامية، و أعاقها عن التقدم والفعل الحضاري اللائق بهذه الأمة.

**المسألة الثالثة : الحداثة اليابانية و رسوخ قيم العمل .**

﻿الحضارة اليابانية المعاصرة تشكّل علامة فارقة في كل الانجازات المدنية التي توصل إليها البشر المعاصرون، فاليابانيون لا يملكون موارد طبيعية ضخمة كما في حضارات بلاد الرافدين، أو ينعمون بموقع جغرافي استراتيجي يهيمنون فيه على العالم كما حصل للإغريق أو الرومان، ولم يرثوا ديانة سماوية شكّلت لهم حضارة كما حدث لبعض الأمم المسيحية أو الإسلامية، بناءً على نظرية مالك بن نبي في أثر العقيدة على التحضر، كما في قوله: «الحضارة لا تنبعث – كما هو ملاحظ - إلا بالعقيدة الدينية، وينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها، ولعله ليس من الغلو في شيء أن يجد التأريخ في البوذية بذور الحضارة البوذية وفي البرهمية نواة الحضارة البرهمية. فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء».

فديانة اليابانيين الشنتو أو البوذية لم تكن سبباً رئيساً في هذا التقدم المدني الذي تعيشه اليابان اليوم، فهم أقرب إلى تجريد الدين من الحياة إلا في مواسم الانفصام العقلي عندما يحيون بعض أعيادهم أو قل أساطيرهم وخرافاتهم الدينية. ولذلك يمكن أن نعتبر الحضارة اليابانية ذات فرادة في دراسات الانثروبيولوجيا الحضارية، فالعقيدة الدينية محفز قوي للعمل والاجتماع كما قرر مالك بن نبي وتوينبي وغيرهم، ولكن لا بد من محفزات أخرى تثير الكتلة الحرجة داخل المجتمعات تلك نحو النهوض، فالنهضة اليابانية الأولى بدأت مع عصر ميجي، التي حكم خلالها الإمبراطور موتسوهيتو (1867- 1912م) وحصل فيها الانفتاح الاستيرادي لكل جديد نافع من الأنظمة والمعارف، بعد عزلة اختيارية لمدة مئتي عام تقريباً، وهذه الفترة لم تتقدم فيها اليابان سوى في التسلح والتصنيع الحربي، ما جعلها تخوض حروباً شرسة كانت نهايتها بتدمير مدينتي هيروشيما ونغازاكي بالقنبلة الذرية التي محت الأرض وغيرت ملامح المستقبل وشكلت تغيراً عميقاً في نفوس اليابانيين. ومن الجدير ذكره هنا أني في تموز (يوليو) 2010م زرت اليابان وخصصت يوماً لزيارة هيروشيما، كان يوماً يحمل معه ألماً عميقاً لما وصلت إليه شراسة الإنسان ورغبته في الاستبداد باستخدام هذا السلاح الفتاك الماحق، ومع هذا الألم والتحسر، تنظر في الخارج لترى حلماً حقيقياً وليس خيالاً من النهضة والتقدم والتباهي التقني التي قادها أولئك المهزومون المقتولون المحتلون!!، وكأن بشراً غير البشر فعلوا ذلك السحر الشرقي، وفي فترة إنجازٍ وجيزة لا تتجاوز العقدين، تعود فيها اليابان من أقوى دول العالم صناعياً وتنموياً، وفي شكل مذهل، يزيد من حيرة المتأمل والمتابع لهذا الأنموذج النهضوي المكافح.

هذه المرحلة النهضوية التي أعقبت الحرب العالمية الثانية هي محور مقالي، في معرفة الأسباب الكامنة وراء هذا النهوض من وسط الركام والانهزام. لهذا خلال فترة زيارتي اليابان حاولت أن أجد إجابتي الشخصية لمعرفة تلك العوامل، وقد استفدت من عدد من الشخصيات الأكاديمية في فك هذا اللغز الحضاري، ولعل الكاتب يوسف أدريس الذي تعد رواياته الأولى في اليابان من خلال جهد المستعرب الياباني (نوبواكي نوتوهارا) حاول معرفة السبب، فبعد زيارات عدة قام بها لليابان، اكتشف أنه في أحد الليالي وبينما هو عائد بعد منتصف الليل إلى الفندق وجد عاملاً يابانياً يعمل وحيداً بكل جد ومثابرة، فاكتشف كما يقول سر النهوض في العامل الذي لم يحتج إلى رقيب أو حسيب في أداء مسؤولياته مهما كانت بسيطة ومتواضعة (انظر: العرب من وجهة نظر يابانية لنوتوهارا

واعتقد أن قيم العمل وأخلاقياته حاضرة بقوة في النهضة اليابانية من خلال الشعور بالمسؤولية الفردية، واحترام الثقة بين العامل ورب عمله، أو الحكومة والمواطن، أو المستهلك والمنتج، وعندما تُخرق تلك الثقة فإن إرباكاً قوياً يصيب المجتمع بحثاً عن هذا الخلل وعلاجه على أعلى مستويات الاهتمام المجتمعي، ولهذا أعجب وأنا ازور الكليات اليابانية أن الباحث يعطى مبلغاً مجزياً لمشروعه البحثي قبل تقديم أي مبررات أو إقناعات أو شهادات تحكيم لقبول تمويل مشروعه أو بحثه، كما أن الأستاذ يختبر طلابه بتوزيع أوراق الأسئلة من دون رقابة أحد عليهم. والتعليم في اليابان جاد وحازم ومتنوع الرغبات ومدرِّب على المهارات، فالطالب يتخرج محباً للمعرفة راغباً في المزيد، مؤسَّساً على العمل واحترام القيم، لهذا تنتج المكتبات اليابانية يومياً أكثر من عشرين ألف عنوان جديد، وعلى رغم كل الملهيات والتقنيات في المجتمع الياباني فإن قراءة الكتب تبقى أولوية رجل الشارع قبل المثقف.

الحقيقة أن هناك الكثير الذي يحتاج قوله عن هذا الكوكب المغاير، ولكن كشف أسباب النهوض الأساسية أمراً يحتاج إلى دقة تشخيص وعمق في النظر، لأن الظواهر العامة ليست بالشرط دليل تحضر لمجتمع ما وإن كانت مؤشراً للتقدم، فالرفاهية وتيسر الخدمات ليست لبّ الحضارة بل قشورها الخارجية، ويمكن أن أحدد أهم عوامل النهضة في اليابان من خلال رؤيتي الشخصية في الجوانب التالية،

 أولاً: احترام القيم كبديل عن الدين والمعتقد لدى اليابانيين، والقيم هنا هي تلك الأخلاق المتوارثة من فرسان الساموراي التي حددتها تعاليم (البوشيدو) وهو قانون الأخلاق القائم على سبعة أمور، وهي: الاستقامة، والشرف، والاحترام، والصدق، والشجاعة، والبر والإحسان، والولاء والإخلاص. وهذه القيم هي التي حافظت على التقدم المدني أن لا يوغل في الانحراف التي تجنيه المجتمعات المادية اليوم، ولذلك برز الأمن المجتمعي كمخرج قيمي ينعم به سكان اليابان بينما يحرم منه مجتمعات أوروبية تنعت بالمتقدمة، كما برز احترام الغير والصدق والأمانة في جميع معاملاتهم اليومية إلى درجة الذهول أحياناً.

الأمر الثاني من عوامل النهوض الياباني: روح الجماعة والفريق الواحد، الذي تتلاشى فيه الأنا، وتنعدم فيه الذات، وتعظم مصلحة المجتمع على كل المصالح الفردية والآنية، وهذا الجانب يُعزز في الأطفال والصغار منذ خروجهم من بيوتهم معاً - كفريق واحد - لهم قائد محترم ومتواضع حتى يصلوا المدرسة ويتخرجوا منها إلى ساحات العمل وميادين التنمية ومعهم تلك الروح التي تجعل من الياباني جندياً في معمله ومصنعه ووظيفته، يقدس عمله وينضبط في وقته ويحترم الأنظمة ويأنف من مخالفتها ولو في سرِّه، لهذا تجد التسامح والمرونة ومراعاة الغير واضحة في أماكن التجمعات كمحطات القطار والانتظار التي تصل أعدادهم فيها إلى مئات الآلاف يتصرفون خلالها بكل هدوء وسكينة واحترام، وما كان هذا ليحدث لولا روح الانضباط بأخلاق الجماعة والسكون لها.

أما الأمر الثالث: فقد يكون في تمتع المجتمع الياباني بالحقوق المدنية وشعوره بكرامته الإنسانية، وحصوله عليها من غير جحود أو مناكفة السلطة، بل لا يشعر الياباني برموز حكومته إلا كخدم للشعب يَشرَفون بذلك العمل من دون استغلال أو استغفال، لذلك أصبح من الطريف عند اليابانيين عندما يرجعون من السفر أن يسألوا عن رئيس وزرائهم الجديد؟!، نظراً الى التغير المستمر في مناصبهم بانتهاء المدة أو الاعتذار عن المواصلة في العمل لعدم القدرة على أداء المهمات أو حل مشكلات معينة، مما يعتبر من المستحيلات في مجتمعات أخرى.
الأمر الرابع : العناية **الفائقة للتعليم في اليابان والتي تعتبر من اسرار النهوض الياباني الحديث ، فالموارد الطبيعية لم تسعف اليابان في مزاحمة الريادة العالمية للدول الغربية بل وجدت لديها ما هو أهم وأعظم لتحقيق التقدم والسمو الحضاري وذلك من خلال المورد البشري بالتعليم والتدريب المتطور الصانع لكل مجالات التقدم المادي والإنساني ، ولو رجعنا للوراء منذ تولي الإمبراطور ميجي مقاليد الحكم بمساعدة رجال الساموراي عام 1867م، كان التصور أن حل المشكلة القومية لليابان هو التحديث، بأن تصبح اليابان دولة عصرية قوية تدخل في المجال الصناعي بكل قوة، ولا بد لها من فتح الأسواق الخارجية بالقوة، والحل يكمن في التوسع الأفقي على حساب الجيران، حيث القوة العسكرية هي المفتاح لتحقيق هذا التوسع. وهكذا انتصر الجيش الياباني في حربه مع الصين عام 1895م، ثم انتصر على روسيا عام 1905م، ثم على كوريا عام 1910م، ثم دخلت اليابان الحرب العالمية الأولى، ثم الثانية لتستولي على الهند الصينية والفلبين والملايو وسنغافورة وبورما وتايلاند. ولكن هذا كله لم يوصل إلا إلى الاستسلام غير المشروط عام 1945م، والذي كان البديل الطبيعي له الانتحار القومي لليابان بأسرها. من هنا انتهى إنسان اليابان، كما يقول الدكتور حمادي في كتابه الشيق (أسرار الإدارة اليابانية)، إلى البحث عن طريق آخر وقرار جديد، وكان أساس هذا القرار الجديد أن الحل يقع داخل حدود اليابان، وأنه مرتبط بالإنسان الياباني وبالعقل الياباني. ومن هنا جاء دور النظام التعليمي في اليابان لكي يأخذ القرار القومي ويصبه بكل قوة في عقل إنسان اليابان الجديد، ومن ثم انتهى إنسان اليابان بعد الحرب العالمية الثانية إلى أن القرار القومي يكون بالتوسع الرأسي من خلال إنسان اليابان وعقله، وليس بالتوسع الأفقي باستخدام السلاح الياباني.**

**كما كتب السفير الأمريكي «إدوين أشاور» كتابًا تحت عنوان «اليابانيون»، طرح فيه سؤالًا جوهريًا، ما سر اليابان؟ وما سر نهوضها ؟ وأجاب: بأن سر نهوضها شيئان اثنان، هما: إرادة الانتقام من التاريخ، وبناء الإنسان، هذا هو الذي نهض باليابان إرادة الانتقام من تاريخ تحدى أمة هزمت وأهينت فردت على الهزيمة بهذا النهوض العظيم، وبناء الإنسان الذي كرسه نظام التعليم والثقافة.ويقول: إن سر نهوض اليابان هو المورد البشري وتنمية هذا المورد العظيم، مما جعل اليابان تتقدم على الصعيد العالمي في نسبة العلماء والمهندسين (60.000 لكل مليون نسمة)، وينخرط نحو (800.000) ياباني في مراكز الأبحاث والتطوير، وهذا العدد تجاوز ما لدى بريطانيا وألمانيا وفرنسا مجتمعة معًا.**

إن زيارة المجتمع الياباني فضلاً عن دراسته تصيب القادم إليه بانبهار واضح وصحوة مفجعة من سكرات الانجاز الكاذبة وخديعة التقدم الهامشي الذي يراه ويسمعه في بلده خصوصاً دول العالم العربي، لهذا تسقط الكثير من أقنعة دعاوى التقدم والنهوض التي تطبل لها وسائل الإعلام الهابطة، ما يجعل هناك فارقاً كبيراً ومسافات بين مشاريع تريد بناء الأرض ومشاريع تريد بناء الإنسان ليعمر الأرض بما يحتاجه ويفيده، وهذا ما جعل الإنسان الياباني هو محور التطور والنهوض، فلولا عنايتهم الكبرى بمواردهم البشرية لما بلغت منتجاتهم كل بيت وانطبعت صورتهم في كل عقل.

هذه النظرة السريعة لا يمكن أن تكون اختزالاً لحراك أمة وشعب، وإنما محاولة عاجلة لرصد أهم الأسباب التي قد تعين على نقل التجربة أو استلهام الأفكار الحية المنتجة لعلها أن تبعث مجتمع آخر في مكان أو زمان آخر.﻿